الفصل الثانى

دراسات الشعر والبيان

الشعر ديوان العرب ، وصيوان حكمتهم وعلمهم ، فيه تجمعت تجاربهم ، وبلغ به فهم القولى مبلغه . واتخذ الشعر طابعه الناضج ، ونظمه الشعراء فى قصائد مطولة قبل الإسلام بمائة وخمسين عاماً ، وظل طوال تلك الأعوام مثلا أعلى للقول الفنى . وظلت القصيدة الغنائية خاضعة للتنميق والتحسين . والزيادة . والتفنن فى التعبير ، تجمع فصيح اللفظ . وجميل الصور التى عبر بها العربى عن هواتف نفسه وهمسات وجدانه .

وكانت للشعر قبل الإسلام مكانة عظيمة . وبلغت مرتبة الشاعر مراتب الزعماء والرؤساء إذ كانت تبشر بمولده القبائل . وتستند إليه فى الدفاع ، فهو لسان دعايتها يرفع من يشاء من الأعوان . ويضع من يشاء من الأعداء ، يثير الحماس فى النفوس فتندفع للقتال ، أو تقبل على الخير .

ونزل القرآن والشعر فى رفيع منزلته . ولكن بيان القرآن كان معجزاً لم يستطع الشعر مجاراته . فارتفعت مكانته فى النفوس مبشراً بالإسلام وتعاليمه . ونزل الشعر عن مرتبته . وارتضى مكاناً ثانياً بين فنون القول عند العرب .

فقد كانوا يروون الشعر ويتناقلون معه الأخبار ، ويتندرون به فى مجالس سمرهم ويعقدون له الحلبات فى أسواقهم . فلما جاء القرآن حمله الناس فى الصدور وصاروا يرتلونه فى الغدو والآصال . رددته الألسنة وتساءلوا عما جاء فيه من أمور الدين . واستعانوا عليه بالشعر لأنه ديوان علمهم . ولأنهم يفهمونه ويحفظونه .

وصار الشعر عوناً للناس على فهم القرآن وتفسيره، وجاء ابن عباس ليقول للناس : إذا صعب عليكم شيء من معانى القرآن فالتمسوه فى الشعر فالشعر ديوان العرب . وبدأ الناس يهتمون بجمعه للاستشهاد به على معانى الغريب فى القرآن . وبدأت حركة التفسير مستعينة بالشعر . وتقدم الزمن، وخرج الشعر والقرآن كلاهما من بيئتهما وسط الجزيرة إلى أوطان غريبة لم يفهم أهلها القرآن فهم العرب ، ولم يفهموا الشعر كذلك ، وظهرت طبقة من المفسرين والرواة، يفسر أولئك القرآن ، ويجمع هؤلاء الشعر ويشرحونه للناس .

وبدأت حركة اللغة معاصرة لمراحل التفسير الأولى وحركة جمع الشعر ، وبدأت الدراسات اللغوية المختلفة ، وظهر علم النحو ، واستلزمت علوم اللغة والنحو شواهد لتدعيم القواعد ، فالتمسها العلماء فى القرآن تارة وفى الشعر أخرى .

ومد الشعر التفسير ، كما مد اللغة والنحو بشواهده، وتفرغ الناس لجمع الشواهد وأغرموا بها ،وكانت شواهدهم أبياتاً مفردة. قد تنسب لقائلها، وقد تعفى من النسب . وكانت النتيجة أن كثر الوضع واختلط أصيل الشعر بدخيله وموضوعه . فالتزم العلماء النص على القائل تقوية للشاهد وتدعيما .

ولم يعدم منتحلو الشعر الحيلة فى نسبة أبيات لغير قائلها، فتضاربت الأقوال . وتنازع الشاهد الواحد أكثر من شاعر .

وقامت رغبة فى النفوس لتدارك الأمر وجمع الشعر فى مجموعات ودواوين تحرى جامعوها الدقة . وسعى العلماء لتحقيق تلك الرغبة، ليحفظوا للقرآن واللغة شواهدهما . وليقطعوا على الانتحال والوضع كل سبيل . وليقوم الاستشهاد على أسس قويمة .

وقامت إلى تلك الرغبة رغبات أخرى لجمع الشعر لذاته . للتأدب به ، أو تأديب أبناء الخلفاء وطلاب الشعر . وكان من نتائج هذه المحاولات آثار فى ظهور بعض الأحكام . والشروح المختلفة .

ومما قوى دراسة الشعر لذاته تيارات العصبية العربية التى بدأت تهب فى عهد الأمويين وأخذ الناس يلتفتون وراءهم ينظرون إلى مآثرهم فى ماضيهم . وتتبعت كل قبيلة مآثرها . وأثارت شاعرها يفصح عنها ويتغنى بها . ثم تتبع العلماء شعر القبائل وجمعوه بين ما جمعوا .

وشغل الناس بالشعر بعد أن هدأت حدته فى النفوس إثر ظهور القرآن ، وما تبعه من انقلاب فى طرق العيش والاجتماع ، وما أعقب كل ذلك من الغزوات والحروب الواسعة النطاق .

وكان من آثار اهتمام الناس بالشعر فى عصر الأمويين ومطلع عصر العباسيين حركة جمعه فقد لمعت أسماء بعض الرواة وجماع الشعر مثل حماد الراوية وخلف الأحمر ، وأبى عمرو بن العلاء والمفضل الضبى وغيرهم. ولازمت حركة الرواية حركة جمع الأخبار والنوادر ، وقام بها جماعة من الأخباريين كأبى عبيدة ، والأصمعى ، والكلبيين ، وأبى عمرو الشيبانى [١] وأبى زيد وغيرهم .

وعرف حماد بحذقه العظيم وعلمه الغزير بالشعر الجاهلى . وندين له بجمع شعر امرئ القيس والمعلقات . وللمفضل بجمع المفضليات . وعرف أبو عبيدة بمعرفته الواسعة بأخبار العرب وأحوالهم وأيامهم ، ونقائض جرير والفرزدق تشهد بعلمه فى هذه الأمور .

وجمع الأصمعى من الأخبار والشعر ما بقى منه كثير من كتب اللغة والأدب يشهد عليه . وله مجموعة الأصمعيات . ومع ذلك لم يكن جامعاً للشعر فحسب بل كان نقاده وصاحب ذوق فيه . وكان أعرف الناس بشرح الشعر وبيان جماله ومحاسن تعبيره . وكان له فضل غير قليل فى توجيه أنظار علماء الشعر والأدب إلى لطائفه ودقائقه .

وكان الكلبيان من أشهر الناس وأعرفهم بالأنساب والأخبار . وإليهما تنسب

(١) مقدمة Diwan of Arabic Poetry, P. XXXVI

المحاولات الأولى لتأريخ العصر الجاهلي وكثيرمن أخبار العرب وقبائلهم ورجالهم المشهورين .

وعرف السكرى كجامع أشعار الهذليين وشارحها ، وراوية أخبار .

هذا عن حركة الجمع فى الشعر . ولم يكن اهتمام الناس بالشعر مقصوراً على جمعه كما سبق القول — ولكن لازمت حركة الجمع حركات أخرى للشعر نفسه ، فوجه الاهتمام إليه كمادة لا غنى عنها فى الثقافة العربية حينذاك . واهتم طلابه بالشعراء اهتماماً أكثر من قبل باعتبارهم أناساً عاشوا وأحسوا وترجموا حياتهم وحياة مجتمعهم بلغة الشعر .

واستهوت المتعة الشعرية نفوس العرب وغيرهم ممن شغف بالثقافة العربية من الموالى . وكان من آيات ذلك اجتماعهم فى سوق البصرة ، والمربد لسماع شعر جرير والفرزدق والأخطل وتتبع نقائضهم . وشغل الناس بهؤلاء ، وبشعرهم ، أصبح لكل منهم أنصاره . وشغل المجتمع العلمى فى المدينتين البصرة والكوفة ردحاً من الزمان بالموازنة بين جرير والفرزدق والأخطل حتى غصت كتب الأدب والشعر بأنباء تلك الموازنات وما قام بين العلماء من خلاف حولهم .

وكان بين ما يوجه إلى الفرزدق من نقد بعض ما جاء فى شعره من مخالفات لقواعد النحو . وشغف بذلك أبو إسحاق النحوى . فتتبع الفرزدق وضايقه حتى هجاه الشاعر .

وقامت حلقات النقد فى قصور الخلفاء يتعرض فيها للشعراء ذوو العلم ممن حضر المجلس ، أو الخلفاء أنفسهم . فيعيب عبدالملك بن مروان قول جرير فى مطلع إحدى قصائده :

أتصحو أم فؤادك غير صاح

قائلا : بل فؤادك يا ابن الفاعلة[1] .

(١) العمدة ١ : ١٤٨ .

وعرف نقاد بالبراعة فى نقد الشعر ، ومن بين هؤلاء خلف الأحمر ، اشتهر بحذقه فى نقد الشعر[١] . قال الأصمعى : قرأت على أبى محرز خلف بن حيان الأحمر شعر جرير فلما بلغت إلى قوله :

ولِيلٍ[٢] كإبهام الحُبارَى محبب إلىَّ هواهُ غالب لى باطله
رزقنا به الصيدَ الغزيرَ ولم نكن كمن نبلُه محرومةٌ وحبائلُه
فيالك يوماً خيره قبل شره تغيب واشيه وأقصر عاذله

قال خلف : ويحه ما ينفعه خير يؤول إلى شر . فقلت هكذا قرأته على أبى عمرو بن العلاء قال صدقت، وكذا قال جرير . وكان قليل التنقيح لألفاظه ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع . قلت : فكيف يجب أن يكون ؟ قال : الأجود أن يكون خيره دون شره فاروه كذلك وقد كانت الرواة قديماً تصلح أشعار الأوائل . فقلت والله لا أرويه إلا كذا[٣] .

وخطأ الأصمعى بشامة بن الغدير فى قوله يصف راحلته :

وصدر لها مهيع كالحليف تخَالُ بأن عليه شَليلا

لأن من صفة النجائب قلة الوبر . . . وخطأ أيضاً كعب بن زهير فى قوله يصف راحلته :

فعمٌ مقيَّدها ضخمٌ مقلَّدها

وكان من نتائج تطلع الناس للشعر — طلباً للمعرفة والمتعة أو طلباً للشاهد فى القرآن ، أو اللغة والنحو — قيام حركة حديدة فى العصر التالى أى فى آخر

(١) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٥
(٢) العمدة ٢ : ١٩٢ .
(٣) العمدة ٢ : ٩٣

القرن الثانى وطوال الثالث . إذ كان الأولون فى صدر الإسلام والعصر الأموى يستشهدون على القرآن بالشعر لأنهم يفهمونه، ويلمون بغريبه ، أما وقد اختلف الأمر فى العصر العباسى ، واختلط الناس ، وامتزج اللسان العربى بغيره ، وقامت لهجات عامية ، وبدأت اللغة تنزل عن مستواها الرفيع ، وتبتعد لغة الشعر القديم عن لغة الناس ، كما تبتعد لغة القرآن وأسلوبه. فلم يكتف العلماء بالاستشهاد على غريب القرآن بغريب الشعر ، لأن ذلك لا يعنى غير الخروج من غريب إلى مثله ، أو تفسير الماء بعد الجهد بالماء . فاستلزم الأمر تبسيط الشعر لطالبيه ، ولدارسى اللغة والتفسير ليفهموا الشواهد وما استشهد بها عليه من معانى القرآن ومشكله . أو لإدراك المعنى الأدبى والقصد الفنى .

وبعد أن تجمع الشعر فى مجموعات كالمعلقات ، والأصمعيات . والنقائض والمفضليات وأشعار القبائل . كأشعار الهذليين ، ودواوين الشعراء الجاهليين ، كديوان امرئ القيس وعلقمة ، وطرفة ، والنابغة ، وزهير ، وغيرهم ممن كان يستشهد بشعرهم فى القرآن والحديث واللغة . تناول اللغويون والأدباء تلك المجموعات بالشرح والتفسير . وظل تفسيره غير مكتوب إلى أواخر القرن الثانى ، بمعنى أنه كان يدور على الألسنة فى المجالس . ولم يدون غيره من العلوم التى دونت فى بدء حركة التدوين . على ما نعتقد .

وشرح الشعر المدون صورة لما كان يدور فى المجالس من شرح عابر لبعض الأبيات . قد ترد فى حديث ولا تزيد عن ثلاثة أو أربعة ، وبندر أن يدور الرأى على قصيدة كاملة. وكان أحد الحضور من ذوى الدراية بالشعر يتولى شرحه شرحاً يغلب عليه الطابع اللغوى الإخبارى . ولم يكن هؤلاء فى غالب الأمر يفطنون إلى ما فى الشعر من دقائق فن القول أو التعبير كالمجاز والبديع ، والاستعارة والتشبيه ، أو غير هذه النظرات الأسلوبية من دقائق فنية أخرى . ولكى نتصور حالة هذه الشروح نورد مثالا مما كان يدور من كتاب الأمالى للزجاجى . يقول :

« . . عن ابن الأعرابى قال: دخلت على سعيد بن سلم وعنده الأصمعى ينشد قصيدة للعجاج حتى انتهى إلى قوله :

فإن تبدلت بآدى أدا لم يك ينآد فاى أنآدا

فقد أرانى أصل القعادا

فقال له ما معنى القعادا ؟ فقال النساء . قلت له هذا خطأ ، إنما يقال فى جمع النساء القواعد كما قال عز وجل : (والقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللاَّتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحا) ويقال فى جمع الرجال القعاد . كما يقال راكب وركاب وضارب وضراب . فانقطع »[1] .

وكان الاستشهاد على غريب الشعر يدعم بالآيات من القرآن حتى تكون الفيصل فى الأمر .

ويتعرض العلماء لغير الغريب إلى المشكلات النحوية كالتأنيث والتذكير فى الكلمة الواحدة من ذلك ما عيب على النابغة فى بيته :

فسلامُ الإلهِ يغْدو إليهمْ وفيوء الفردوس ذاتُ الظلالِ

قال أبو حاتم السجستانى : أنث الفردوس على أنها جنة وأن المعروف التذكير . كما يقال الفردوس الأعلى . وفى القرآن : (يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا) على معنى الجنة[2] .

وصاحب النقد اللغوى والنحوى الموجه فى الغالب إلى اللفظ والإعراب نقد آخر يتعلق بالفن الشعرى . يتناول القيمة الفنية على أساس آخر غير اللغة والإعراب . ولم يكن هم من وجهوا عنايتهم إلى الناحية الأخيرة مجرد جمع الشعر كما

(١) أمالى ابن الشجرى ج ١ سنة ١٣٢٣ هـ ٣٩ .
(٢) نوادر أبى زيد ٣٨ .

اتفق بل توجهت عنايتهم إلى القيمة . فنرى أبو عبيدة — مثلا — ينبه إلى هذا فيما يروى صاحب الجمهرة فيقول .

« مر أبو عبيدة معمر بن المثنى برجل ينشد شعراً فطول فيه فقال أبو عبيدة أما أنت فقد أتعبت نفسك بما لا يجدى عليك ، وما كان أحسن أن تقصر من حفظك فى هذا الشعر ما طال ، ألم تعلم بأن الشعر لا ينفد منه مغدنه ، فمنه الموجود المبذول ، ومنه المعوز المصون ؟ فعليك بالبحث عن مصونه ، يكثر أدبك ودع الإسراع إلى مبذوله كى لا يشغل قلبك ، ثم أنشد أبو عبيدة :

مصون الشعر تحفظه فيكفى وحشوُ الشِّعر يورثك الملالا[1]

فنبه إلى قيم الشعر وزائفه ، وأشار إشارة عابرة إلى مقياس ذلك الذى يحفظ فيكفى منه ، وفرق بينه وبين المبتذل الملىء بالحشو ، والذى يورث الملال .

وكان العرب — فيما تروى كتب الأدب — ينقدون الشعر من ذلك الجانب الفنى فى جاهليتهم ويذكرون حديث الخنساء وحسان بن ثابت والنابغة . حين انتقدت الخنساء أبياتاً لحسان ، وأقرها النابغة عليه . ويروى كثير مما كان يدور فى مجالس الخلفاء بين العلماء والشعراء من محاورات حول الشعر ليست لغوية كلها ولا أخبارية ، تبرز فيها أحياناً لمحات نقدية فنية اتخذت صورة أحكام عامة مقتضبة لا تكاد تبين .

ومما تناقلته كتب الشعر من تلك الأحكام قولهم فى شعراء الجاهلية : أشعر الناس زهير إذا رغب . والنابغة إذا رهب ، وامرؤ القيس إذا طرب ، والأعشى إذا شرب أو طرب . وهى أحكام لا تعنى التحليل والتدقيق ، وإبراز الجمال ، ونواحى الإبداع عند كل شاعر تفصيلا ، وهذا طبيعى فى تلك الأيام لأنها كانت تلقى فى دائرة ضيقة لا يتعدى البيت أو البيتين ، فيقولون هذا أمدح بيت قالته العرب أو جرير أمدح الناس إذ يقول « ألستم خير من ركب المطايا » .

(١) جمهرة أشعار العرب ص ١٩ .

ونرى أن هذه الأحكام الموجزة المسجوعة كانت تجرى وطبيعة العرب فى الميل إلى الإيجاز والسجع ، وهما الصورة البيانية للمثل السائر الذى شغفوا به وقدموه . وكانت تتناقله ألسنتهم فى إعجاب كلما هزت نفوسهم تجربة فى الحياة ، فقدموا الشعر القريب من المثل . وأعجبوا فى القرآن بآياته التى تحكى ذلك اللون . . وهكذا صاغوا أحكامهم الفنية فى صورة ما يحبون حتى تتواتر وتتناقلها الألسنة كلما عرض ذكر الشعر والشعراء .

ويروى لنا أبو هلال صورة لهذا اللون من النقد الفنى فى مجالس العلماء فيقول : أخبرنا أبو بكر بن دريد عن السكن بن سعيد عن محمد بن عياد قال : سمعت أبا عبد الله نفطويه يذكر عن الفراء قال : قال الكسائى : حضرت مجلساً للخليل بن أحمد ، وقد جمع بينه وبين يونس بن حبيب عند العباس بن محمد فى مفاتقة اللغات ومجاريها ، ونوادر الإعراب ومذاهب العرب ومجازها وأخبارها ، فكان الخليل كالسابق قرن به ذو الذوائب الحطم فى حلبة المضمار إلى أن تذاكروا الأشعار والشعراء . فأكثر يونس من ذكر زهير وتقديمه ، وذكر الخليل النابغة وقدمه وعظم أمره . فقال العباس للخليل : بم تذكر النابغة ؟ قال كان النابغة أعذب على أفواه الملوك وأبسط قوافى شعر ، كأن الشعر ثمرات تدانين من خلده . فهو يجتنيهن اختياراً . له سهولة السبق . وبراعة اللسان . ونقاية القطن ، لا يتوعر عليه الكلام لعذوبة مخرجه وسلامة مطلبه[1] .

وتلك أحكام عامة لا تعليل فيها ولا تحليل . بل اكتفاء بذكر النتائج ، مع الإشارة إلى جمال المعانى ، وحسن الوقع ، والأسلوب بألفاظه دون بيان لعلل ذلك وأسبابه .

وهذه كلها يمكن أن تقال لغير واحد وفى غير مناسبة ، وتصح على قول النابغة كما قد تصح على غيره من الشعراء .

(١) ديوان المعانى ص ١٨ .

وانتقل الناس إلى مرحلة التدوين فى الشعر والأدب فدونت المجالس السابقة بالرواية وضم إليها نوادر الأعراب التى تناقلتها الألسنة شفاها ، وتجمعت دواوين الشعر ، وبدأ الناس ينظرون إليها محاولين تفسيرها على مذهب أسلافهم ، وعلى مثال ما كان يدور ويروى . وكثيراً ما غلبت رواية السابقين آراء اللاحقين فى كتبهم .

وأصبح الشعر منمشياً مع القرآن فى التفسير لحاجة القرآن إلى الشعر ومعانيه فقامت إلى جانب كتب « معانى القرآن » كتب « معانى الشعر » .

الشروح اللغوية الأولى

١ — من أول من شرح الشعر شرحاً مطولا ووصل إلينا كتابه أبو عبيدة فى كتاب « نقائض جرير والفرزدق » . وكان يروى الشعر وينقده . يروى له الجاحظ رأياً فى مذهب زهير بن أبى سلمى وأصحابه — وهو مذهب الصنعة والتأنق — فيقول : وكان أبو عبيدة يقول — ويحكى ذلك عن يونس — ومن تكسب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة ، وجوائز الملوك والسادة فى قصائد السماطين ، وبالطوال التى تنشد يوم الحفل لم يجد بداً من صنيع زهير والحطيئة وأشباههما[1] .

والغالب على النقائض اللغة والأخبار ، وهو طابعه المميز فى مجاز القرآن كذلك . وكان قليلا ما يتعرض للنواحى الفنية ، كما كان يندر أن نعثر على توضيح لصورة بيانية ، لتشبيه أو استعارة أو كناية أو غيرها . ولكن ليس يعنى هذا خلو شروحه — للقرآن أو الشعر — من إشارات عابرة يرد فيها لفظ التشبيه ، أو يوضح ذلك اللون البيانى دون إشارة توضيحاً يدل على فهمه لمغزى دوره فى

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٣ .

التعبير . ومن هذه الإشارات قوله فى قول الشاعر :

وأنت كليبيّ لكلب وكلبة لها عند أطناب البيوتِ هريرُ

يخاطب جريراً يقول : ألست لكلب ، وأمك كلبة ؟ . وأطناب البيوت حبال الخيمة ، شبهه بقلة خيره بالكلبة [١] .

وحاول أحد الباحثين فى تاريخ البلاغة أن يحدد موضع ورود كلمة استعارة فى النقائض [٢] .

ويستشهد أبو عبيدة أحياناً فى شرح أبيات النقائض بآيات من القرآن ، من ذلك أنه استشهد على استعمال أفعل التفضيل فى قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتـــا دعائمه أعز وأطول

. . . فقوله أعز وأطول من بيتك ، فلما صار فى موضع الخبر استغنى عن من لقوة الخبر ، وخرج مخرج الله أكبر . وفى كتاب الله عز وجل : (والسّاعَةَ أدْهَى وأمَر) وقوله تعالى : (إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وأَحْسَن تَفْسِيرًا) أى من كذا مما يقولون [٣] .

(ب) ومن هذا السبيل كذلك مجموعة النوادر لأبى زيد وإن تأخرت عن النقائض بعض السنين وقد جمع فيها أبو زيد مجموعة من الشعر العربى القديم فى مقطوعات صغيرة بين بيت وثلاثة أبيات . وشرحه لها يسلك سبيل أبى عبيدة فى شرح النقائض . وهو الطابع الغالب على شروح اللغويين فى ذلك العصر ، لا يتعدى تفسير المفردات اللغوية الغريبة ، ثم إيراد الشاهد من القرآن يتبعه الشواهد الأخرى من الشعر والمثل والكلام الفصيح .

والمسائل اللغوية التى يتعرض لها فى النوادر كثيرة ، من أمثلتها الحذف ،

(١) النقائض ١/١٨٢ .
(٢) نشأة البلاغة وتطورها لسيد نوفل ٨٤ وما بعدها .
(٣) النقائض ١٨٢ .

والتقديم والتأخير ، وغيرها . ولا نكاد نعثر على اصطلاح بيانى واحد كالتشبيه أو الاستعارة أو الكناية . وهذا لا يعنى خلو مختاراته من الشعر العربى من تلك الفنون جميعاً ، وإنما قد يعنى قلة اهتمامه ، أو لعله قلة إدراكه لها وانصباب همه كله على اللغة فى الغريب والإعراب .

(ج) ومن تلك المجموعات مجموعة جمهرة أشعار العرب للقرشى ، وسنقف قليلا عند هذا الكتاب لصلته القريبة بما نحن بصدده من بيان صلة القرآن ودراساته بالشعر فى ذلك العصر فهو يؤيد وجهة النظر القائلة بأن الشعر فى هذا العصر كان يجمع ويدرس ليمد القرآن بالشاهد ، وأن شراحه كانوا يذهبون إلى هذا حين يشرحون . فيضعون معانى الشعر قريبة من الأفهام لتسهل مقارنتها بآيات القرآن ، وفهم مرامى التنزيل وأسراره .

والقرشى يعرض لمجموعة من المسائل الهامة فى مقدمة الكتاب ، تشترك فى البيان ، أو فى التعبير والأسلوب بين القرآن والشعر . وينص على أن الشعر جمع للاستشهاد على القرآن والحديث فيقول :

« هذا كتاب جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام الذين نزل القرآن بألسنتهم واشتقت العربية من ألفاظهم ، واتخذت الشواهد فى معانى القرآن وغريب الحديث فى أشعارهم وأسندت الحكمة والآداب إليهم » .

ثم يذكر ما جمعه من الشعر فى جمهرته ، وأهم المسائل التى اختارها ونبه إليها مما وافق القرآن منها . يقول :

« ونحن ذاكرون فى كتابنا هذا ما جاءت به الأخبار المنقولة والأشعار المحفوظة عنهم وما وافق القرآن من ألفاظهم وما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعر والشعراء » .

ويذكر ما جاء من الشعر فى معانى القرآن عن ابن عباس ، وما جرى بينه وبين نافع بن الأزرق من مسائل فيقول « فمن ذلك ما حدثنا به المفضل بن محمد

الضبي يرفعه إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : قدم نافع بن الأزرق الحرورى إلى ابن عباس يسأله عن القرآن فقال ابن عباس : يا نافع القرآن كلام الله عز وجل خاطب به العرب بلفظها على لسان أفصحها » .

ويتكلم عن بيان القرآن ، وينفى عن لفظه العجمة ، ثم ينبه إلى أن ما قيل بعجمته كالاستبرق والديباج ، والافرند وغيرها موافق للغتين العربية والفارسية ، مشترك بينهما ، وهو ما قاله أبو عبيدة قبله فى مقدمة المجاز والطبرى فى مقدمة التفسير أيضاً .

ويتدرج من هذا التمهيد إلى عيون المسائل المشتركة بين القرآن والشعر . ومنها ما نبه إليه أبو عبيدة فى مقدمته ، وابن قتيبة فى مشكله ، وهذا يرجح عندى قراءة القرشى للمجاز على الأقل . يقول : « وفى القرآن مثل ما فى كلام العرب من اللفظ المختلف ، ومجاز المعانى فمن ذلك قول امرئ القيس :

قفا فاسألا الأطلال عن أم مالك وهل تخبر الأطلال غير البهالك

فقد علم أن الأطلال لا تجيب إذا سئلت وإنما معناه قفا فاسألا أهل الأطلال ،وقال الله تعالى : (واسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا) يعنى أهل القرية .

وتكلم عن الحذف فى القرآن وفى الشعر فقال . قال الأنصارى :

نحنُ بما عِنْدَنَا وأنتَ بما عِنْدَكَ راضٍ والأمرُ مختلفُ

أراد نحن بما عندنا راضون ، وأنت بما عندك راض ، فكف عن الخبر الاول . إذ قام دليل على معناه ، وقال الله تعالى : (واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ وإنَّهَا لَكَبِيرةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ) فكف عن خبر الأول لعلم المخاطب بأن الأول داخل فيما دخل فيه الآخر من معنى .

والزيادة ، ويرى أن الحروف قد تزاد فى الشعر كما تزاد فى القرآن .

والالتفات ، وهو مخاطبة الغائب ثم العدول عنه إلى الشاهد أو العكس .

التوافق ، وهو موافقة اللفظ .

والكناية . قال امرؤ القيس :

ألا زعمتْ بسباسةُ اليومَ أنني كبِرتُ وأنْ لا يُحْسِنُ السِّرَّ أمثالي

السر النكاح . قال الله تعالى : (ولكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا) .

والأضداد . قال امرؤ القيس :

خفاهُنَّ من أنفاقهن كأنما خفاهُن ودْقٌ من عشيٍّ مجلَّب

خفاهن أظهرهن . قال الله تعالى : (إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أكادُ أُخْفِيهَا) أى أُظهرها .

وقد فهم كما يدل مثل منهم بعض اللغويين ورأى رأيهم . وهو التوسع فى فهم الأضداد .

(د) مجموعة معانى الشعر للاشناندانى :

وتحتوى على مجموعة مقطوعات شعرية تتكون كل منها من بيتين أو ثلاثة . يتولى شرحها على النهج اللغوى السابق فى النوادر وجمهرة أشعار العرب . ونعثر أحياناً أثناء الشرح على كلمة تشبيه . يستعملها بمدلولها البسيط الذى لا يخرج إلى فهم الاصطلاح البيانى . ودراسة أركان التشبيه أو غرضه . كأن يقول فى قول الشاعر :

. يُشَرْقِنَ أمثالاً من الخَلَلِ الخُضْرِ .

أى يخرقن . الأمثال الخلقان . واحدها مثل . يعنى الطحلب . وشبهها بالخلل الخضر [1] . والاستعارة فى شرحه لقول الشاعر :

تمشى بها الدرماءُ تسْحَبُ قصْبها كأنَّ بطنَ خُلَّى ذات أوبيْنِ مُتْئِم

(١) معه الشعر ٤٨

. . . وقوله تسحب قصبها مثل والقصب المعا مقصور ، والجمع أقصاب وإنما أراد بالقصب البطن بعينه ، واستعاره .يقول : فالأرنب قد عظم بطنها من أكل الكلأ . وسمنت فكأنها حبلى »[١] .

ويدور فى هذا الكتاب بعض ما كان يجرى فى الدراسات القرآنية الأولى من المسائل اللغوية والبيانية ، كالمقلوب بأنواعه ، انقلاب معنى الفاعل إلى المفعول ، والمفعول إلى الفاعل وانقلاب معنى اللفظ إلى ضده . ورأيه فى الأضداد رأى من يتوسع من اللغويين ، ويقيس على ما جاء فى الشعر على خلاف الأصمعى وأبى حاتم وابن الأنبارى وابن قتيبة ، فيرى أن الناهل بمعنى الريان والعطشان ، ولا يعلل الصلة بين المعنيين المتضادين . وكذلك الجون الأبيض والأسود[٢] .

(٨) شروح الدواوين :

ومن هذه الشروح فى عصرنا شرح ابن السكيت لديوان عروة بن الورد ويغلب عليه الصبغة اللغوية كالشروح السابقة ، وتختلط عنده فى كلمة مثل الاستعارة بالتشبيه بالمثل كما خلط صاحب « معانى الشعر » بين المثل والاستعارة فيما سبق من كلام . يقول فى قول كثير عزة :

فإن فاز سهم للمنية لم أكن جزوعاً وهل عن ذاك من متأخر

إن هذا مثل تمثل به . يقال للذى يخرج سهمه فى القداح أولا قد فاز سهمه ، وفوز السهم خروجه أولا . فإذا خرج كان له الظفر والنجاح[٣] .

الدراسات البيانية فى الشعر

كانت تبرز إلى جوار الشروح اللغوية محاولات فردية تتعرض بين الحين

(١) نفس المصدر - ٢٣ - ٢٤ .
(٢) نفس المصدر ١١٣ .
(٣) شرح ديوان عروة / ٦٧ .

والحين لفنون الشعر ، وأسرار أسلوبه ، وتجلت هذه المحاولات فى آخر القرن الثالث بعد أن سبقتها دراسات شبيهة فى أسلوب القرآن على ما عرفنا عند الجاحظ وابن قتيبة .

ولا شك أن القرآن بما جمع فى أسلوبه من ضروب البيان كان من بين الحوافز التى حفزت علماء البيان والأدب ، ووجهت أنظارهم إلى فنون الأسلوب ، أو التعبير الفنى فى صوره المختلفة فى القرآن وفى الشعر والنثر . ولعلنا تنبهنا أيضاً إلى أن الدافع لأولئك العلماء للاهتمام ببيان القرآن كان فى أول أمره بقصد الدفاع عن الكتاب المقدس ضد نزعات الشك الفلسفية ورد ما يدعى من التناقض والمطاعن التى رمى بها الكتاب ، والحديث ، ثم لإثبات الإعجاز فيه ، وإظهار أسلوبه فى مظهر لا يرقى إليه فن آخر من فنون العرب فى كلامهم ، والاحتجاج لذلك بكل وسيلة ، بالكلام والحجج العقلية ، وبالأدب والفنون البلاغية ، ولعلهم أمعنوا فى تخريج صنوف البلاغة ، وتقصى شواهدها للتدليل على إعجازه البلاغى ، ودرسوا أسرار الأسلوب وتقصوا فى آياته ثم استشهدوا بما يماثلها فى الشعر ابتغاء تلك الغاية .

وإذاً فقد امتزجت العقيدة بالرغبة الأدبية فى استطلاع بيان القرآن ، فكان من ذلك خير للنقد . واندفع العلماء يبحثون عن فنون القول فى الشعر والنثر أثناء بحثهم ودراستهم لها فى القرآن . وهكذا ظهرت دراسات مستقلة بها فى آخر القرن الثالث .

ولازم حركة النقد المتأثرة بدراسات القرآن حركة إنشائية فى صناعة الشعر والكتابة الفنية ذلك أن الشعراء والكتاب المحدثين ، بدأوا يجددون فى الشعر والكتابة ويستحدثون أساليب يعمدون فيها إلى الصنعة والتنميق ، وتفننوا فى الأسلوب والألفاظ لأن المعانى قصرت عنهم ولم يواتهم الطبع مواتاة الجاهليين ، فاستعانوا بالبديع وضروب الصناعة اللفظية والبيانية ليعرضوا نقص الطبع ، وليرضوا أذواق العصر التى كانت تصرفها الحضارة وضروب الترف ، والتنميق فى أساليب الحياة نحو

التنميق فى فنون القول . وطلع بشار على الناس مبشراً بهذا المذهب الجديد وتبعه أبو نواس ، ومسلم ، وأبو تمام وغيرهم . وقد غالى أبو تمام فى الاعتماد على التصنيع والتغل فى البديع فاختلف فيه الناس بين معجب به وعائب عليه .

واختلف النقاد فى شعر أبى تمام واهتم العائبون والمادحون كلاهما به ، وتتبعوا آثار الصنعة فيه ، وتصيدوا البديع وقاسوه على ما سبق الكلام فيه فى دراسات القرآن ، ولم تكن تلك بخافية عليهم ، لأنها كانت بين أيديهم تدور فى كتب التفسير نفسها ، فضلا عما يجىء فى كتب البيان ، وما يختص منها ببيان القرآن مثل " نظم القرآن " ، أو " مشكل القرآن " ، فما كان من هؤلاء العلماء إلا أن تنبهوا إليها فى الشعر مفردين لذلك كتباً مستقلة .

وهكذا برزت تلك الدراسات الجديدة للبيان فى الشعر فى آخر القرن على أيدى المبرد وثعلب وابن المعتز .

١ - قواعد الشعر : لأبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب

يمكن أن نعتبر هذا الكتاب أول محاولة مستقلة لدراسة بيان الشعر وصلت إلينا بعد أن ظل الناس يعتقدون أن " كتاب البديع " لابن المعتز يحوز هذا الفضل وحده . ويشترك الكتاب فى اسمه مع كتاب آخر للمبرد محمد بن يزيد معاصر ثعلب وصنوه فى العلم والنحو والأدب واللغة . ولم يقع لنا كتاب المبرد ، ولكن يغلب على الظن أنه شبيه بصنوه ، وإن كنا لا ندرى على التحديد ما تناوله من الموضوعات أو الفنون ، ولا طريقة تناوله . ويمكننا أن نظن كذلك أنها كانت دراسة تمتاز بطابع المبرد وشخصيته وبحسن عرضه ، وأسلوبه الرصين ، وجمال فهمه ولطيف عرضه لكلام العرب وحسن اختياره لبديع قولهم وحسن بيانهم .

وكتاب ثعلب قيم لأنه المحاولة الأولى فى هذا الميدان كما قلت . وهو صغير عليه طابع المحاولات الأولى ، الخلط بين الفنون المختلفة ، بين ما هو مختص بالشعر ،

وما هو واقع فى الكلام عامة . فيبدأ — مثلا — بتقسيم الشعر إلى أمر ونهى وخبر واستخبار . وهو تقسيم لا يقع على الشعر وحده بل على الكلام بوجه عام ، وورد مثله على لسان ابن قتيبة من قبل[1] .

ويخلط بين موضوعات الشعر وفنونه إذ يتكلم عن المدح والهجاء والمراثى والاعتذار والتشبيب ، واقتصاص الأخبار . وتلك كلها موضوعات الشعر لكنه يدخل فيها التشبيه ، وهو من فنون القول واقع فى الشعر كغيره وإن كثر فيه .

ويجعل الأمر والنهى والخبر والاستخبار أصولا تنقسم إلى مدح وهجاء ورثاء واعتذار وتشبيب واقتصاص أخبار .

ويتكلم عن كل قسم مما ذكره . ومن بينها التشبيه فيعقد له باباً للتشبيهات المشهورة فى طائفةمن الشعر الجاهلى . ثم يتكلم عن الإفراط والإغراق ويجعل منها بيت امرئ القيس :

وقد أغتدى والطيرُ فى وُكُناتها بمنجرد قيدِ الأوابدِ هيْكَلِ

ويعقد باباً باسم « لطافة المعنى » يعرفه بقوله « هو الدلالة بالتعريض على التصريح ، ويقول : « ما يدل على الإيماء الذى يقوم مقام التصريح لما يحسن فهمه واستنباطه » ويذكر منه قول عروة :

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحْسُو قُراح الماء والماء بارد[2]

وحسن الخروج عن بكاء الطالل ووصف الإبل . وتحمل الأظعان بغير

(١) ذكره فى أدب الكاتب ص ٤ ط السلفية سنة ١٣٤٦ هـ ، ص ١٦ إذ يقول فى الأول : الكلام أربعة : أمر ونهى وخبر واستخبار ورغبة . وفى الثانية إنما الكلام أربعة : سؤالك الشيء ومسألتك عن الشيء ، وأمرك بالشيء ونهيك عن الشيء .
وعنه نقله البطليوسى فى الاقتضاب ص ١٩ ط بيروت سنة ١٩٠١ .

(٢) قواعد الشعر — ٤٣ .

« دع ذا » و« عد عن ذا » « و » واذكر ذا » بل من صدر إلى عجزلا يتعداه إلى سواه ولا يقرنه بغيره .

والاستعارة «وهو أن يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواه » كقول امرئ القيس فى صفة الليل ، فاستعار وصف جمل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازًا وناء بكلكل

ومبادرة الأضداد . « وهو ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده » كقوله تبارك وتعالى : (لا يَمُوتُ فيهَا ولا يَحْيَى) .

والمطابق . قال أبو العباس « وهو تكرير اللفظ بمعنيين مختلفين » نحو قوله تعالى : (ويَأْتيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُو بِمَيِّتٍ) ، (وتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى) .

ويبحث فى الألفاظ من حيث الجزالة والقوة ، والسفساف الضعيف فيقول : « فأما جزالة اللفظ فما لم يكن بالغريب البدوى ، ولا السفساف العامى ولكن ما اشتد أسره وسهل لفظه ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه وتوهم إمكانه ».

ومن حيث نظم الألفاظ فيقول « اتساق النظم ما طاب قريضه وسلم من السناد والأقواء والأكفاء والإجازة والإيطاء وغير ذلك من عيوب الشعر وما قد سهل العلماء إجازته من قصر الممدود ومد المقصور ، وضروب أخر كثيرة ، وإن كان ذلك قد فعله القدماء وجاء عن فحولة الشعراء » . ويروى أمثلة لذلك .

ويختم هذه الدراسة بتقسيم عام للشعر إلى درجات من حيث القيمة الفنية

١ – فأبلغ الشعر[1] :

وهو عنده ما اعتدل شطره وتكافأت حاشيتاه وتم بأيهما وقف عليه معناه ،

(١) هذا الاسم غير موجود بالنسخة الخطية وسقطه ناشر الكتاب .

وإنما بذها سابقاً ، ولاح دونها نيراً لاختصاصه بفضلها وسلبه محاسنها ، وأنها مستنيرة بغير زنة ، ومتجملة بما يناسبها منه لتوسطه دونها ، ونأيه عن التعدى والتقصير دونها ، والتوسط ممدوح فى كل لغة موسوم بكمال الحكمة . وبعد فهو أقرب الأشعار من اللاغة وأجدرها عند أهل الرواية وأشبهها بالأمثال السائرة نحو « القتل أنفى للقتل » .

والشواهد التى يذكرها مع هذا التعريف تجرى مجرى المثل ، ومعانيها بقدر ألفاظها مع تلخيص لتجربة فى الحياة فى لفظ موجز يجرى على ألسنة الناس مجرى المثل السائر من مثل قول زهير :

ومن يغترب يحسب عدوًّا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

وقول طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

٢ — الأبيات الغر :

واحدها أغر وهو ما كان نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه وكان لو طرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالته ... فأخف الكلام على الناطق مئونة ، وأسهله على السامع محملا ما فهم عند ابتدائه مراد قائله . وأبان قليله ووضح دليله ، فقد وصفت العرب الإيجاز فقرظته . وذكرت الاختصار ففضلته . فقالوا : لمحة دالة لا تخطئ ولا تبطئ ووحى صرح عن ضميره ، وأومأ فأغنى .

ويذكر مثالا عليه قول الخنساء :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

٣ ـ الأبيات المحجلة :

وهى ما نتج قافية البيت عن عروضه ، وأبان عجزه بغية قائله ، وكان كتحجيل الخيل ، والنور يعقب الليل » . ويذكر من أمثلته قول امرئ القيس :

ولو عن نثـــا غيره جاءنى وجرح اللسان كجرح اليد

وقوله :

فتملأ بيتَنَا أَقِطاً وَسمْناً وحَسْبُك من غِنًى شِبَعٌ ورِىُّ

٤ ـ الأبيات الموضحة :

وهى ما استقلت أجزاؤها وتعاضدت فصولها ، وكثرت فقرها واعتدلت فصوصها فهى كالخيل الموضحة ، والفصوص المجزعة والبرود المحبرة ليس يحتاج واضعها إلى « لو كان فيها سوى ما فيها » وهى كما قال الطائى فى وصفه مثلها :

تختـــال فى مفوف الألوان من فاقـــع وناصع وقـــانى

وقالت أخت مسعود بن شداد :

حمال ألوية ، شداد أوهية شهاد أندية ، فراج أشداد
قتال طاغية ، رباء مرقبة قوال محكمة ، فكاك أقياد

ولعله نظر إلى الصنعة والموسيقى الداخلة الناتجة من تردد قافية داخلية فى الأبيات

٥ ـ الأبيات المرجلة :

التى يكمل معنى كل بيت بتمامه ولا ينفصل الكلام منه ببعض يحسن الوقوف عليه غير قافيته ، فهو أبعدها من عمود البلاغة ، وأذمها عند أهل الرواية إذا كان

منهم الابتداء مقروناً بآخره ، وصدره منوطاً بعجزه ، فلو طرحت قافية البيت وجبت استحالته ونسب إلى التخليط . قال الطائى :

عدلا شبيهاً بالجنون كأنما قرأت به الورهاء شطر كتاب

ومنه قول جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

ويمكن مما سبق عرضه من الكتاب القول بأن بعض فنون القول والمصطلحات البيانية التى وردت فيه قد جرى مثلها فى كتب البلاغة بعده بأسمائها أو بأسماء قريبة . كالاستعارة فقد وردت فى الدراسات القرآنية السابقة وأخذت حدها البيانى عند الجاحظ وابن قتيبة . والإفراط فى الإغراق ذكره ابن قتيبة فى المشكل باسم المبالغة أثناء دراسته للاستعارة . وأفرد لها ابن المعتز باباً فى البديع سماه باسم ابن قتيبة فى الشعر والشعراء (الإفراط فى الصفة) وذكره أبو هلال باسم الغلو وجعل المبالغة لوناً آخر ، ويذكره ابن رشيق باسم الغلو كذلك[1] والمدلول واحد اختلف البلاغيون فى تسميته والتفريع منه فجعلوا منه المبالغة والإيغال والغلو إلخ . والتعريض والتصريح - ذكره مرة باسم الكناية ومرة باسم التعريض ومرة بالاسمين معاً بعض من سبق الكلام عنهم فى دراسات القرآن[2] . وأفرد لها ابن المعتز باباً « التعريض والكناية » وهى تسمية ابن قتيبة فى المشكل[3] .

وحسن الخروج لون معروف فى فنون البلاغة ويسمى أحياناً بحسن التخلص ذكره ابن المعتز فى « البديع » وسماه أبو هلال والمتأخرون « الاستطراد » ولا يوافقهم صاحب العمدة فيسميه « حسن التخلص »[4] .

(١) العمدة ٢/٤٩ .
(٢) راجع ص ١٤٣ من هذا البحث .
(٣) راجع ص ١٠٣ .
(٤) قواعد الشعر - لهلش ص ٤٣ .

أما مجاورة الأضداد فقد أراد بها ثعلب الطباق المعروف عند البلاغيين وهو عند ثعلب ضرب من التجنيس لأنه يجمع بين لفظين متشابهين فى البناء ومختلفين فى المعنى والمطابقة بالمعنى الأول أحد أبواب البديع عند ابن المعتز والعسكرى وابن رشيق[1].

والطريف فى قواعد الشعر تقسيمه الشعر من حيث القيمة الفنية إلى خمسة أقسام تتدرج فى الحسن والجودة ، وقد اشتق أسماءها فيما يبدو بنفسه من خواص الخيل . وفكرته عن الشعر البليغ أو أعلى مراتب الشعر عنده موجودة عند جماعة اللغويين وأصحاب الظاهر منهم خاصة ، فهم يقدمون الشعر الوسط حسب التعريف الذى أورده ثعلب ، ويقرنونه بالمثل السائر . وهو فيما يظهر المثل الأعلى للبلاغة العربية فى ذلك الوقت . وقد اهتم العلماء بالمثل العربى السائر ، والأبيات التى تجرى مجرى المثل ، فألفوا فيها ، وجمع المفضل الضبى كتاباً فى الأمثال ، وأعقبه أبو عبيد القاسم بن سلام . ولاهتمام اللغويين بالمثل السائر أصول ، ذلك أنه يوجز المعانى الكثيرة لتجربة فى الحياة فى ألفاظ قليلة سهلة التداول سلسة الانسياب على الشفاه فى غير ما غلو ولا إغراق فى المعنى ، لأن المعنى أو الصورة التى يتضمنها المثل صورة جماعية . أو معنى إنسانى فى حياة كل فرد عاش فى البيئة العربية وأحس إحساساتها . ولا شك أن المثل العربى بما جمع من تلك المزايا اللغوية والمعنوية والإنسانية كبير القيمة عظيم الوقع فى النفوس . لأنه يثير أصداء لذكريات وتجارب مماثلة فيحدث شيئاً من التفريج أو الراحة النفسية .

وهو من الناحية اللغوية أقرب لون يعطى المعنى بصورة واضحة ثابتة . وهذا ما توخاه اللغويون دائماً فى الشاهد . الوضوح . والقوة فى أداء المعنى المطلوب ، فى قالب فصيح .

ومذهب الوسط فى الأسلوب إذا صح أن هناك مذهباً أولاه اللغويون

(١) العمدة ١/١٥٦ .

عناية خاصة فى القرآن والشعر وكلام العرب . وهو مذهب لا يرى أصحابه المغالاة فى المعانى أو الإغراق فى التشبيه والاستعارة ، وقد حمل ابن قتيبة من قبل فى المشكل أثناء كلامه عن المبالغة فى الاستعارة على هؤلاء اللغويين ، وسماهم الجاحظ من قبل « أصحاب الظاهر » ، وأولاهم من لسانه من السخرية غير قليل ورماهم بالجهل وقلة الفهم .

وما جاء فى أقسام ثعلب للشعر لا تبلغ خطورته فى النقد مبلغ القسم الأول ، لأنها أقسام كثر تداولها بين الناس من قبل ومن بعد بأسماء مختلفة ، لم يكن له من فضل فيها غير التسمية وهى تسمية لم تدم طويلا . فالكلام عن صلة صدور الأبيات بأعجازها موجود من قبل ، وسلكه البلاغيون فى فنون البلاغة وأقسامها من بعد ، وقالوا ما يقرب منه فى الفاصلة فى القرآن ، ورأى فيه بعض العلماء شواهد على إعجاز القرآن .

وذلك شأن الصلة بين صدور الأبيات وقوافيها ، وقريب منه بحوث العلماء فى الفاصلة ورأس الآية . وصلة رأس الآية ، بالآية كلها .

ومهما يكن من شىء فإن دراسة ثعلب للبيان فى الشعر فى هذا الكتاب تعتبر رأس الدراسة البيانية المنظمة فى الشعر . وهو و "كتاب البديع" يقابلان "نظم القرآن" و « مشكل القرآن » فى الدراسة القرآنية .

ولا شك أن سبق الدراسات القرآنية فى الأسلوب بطريقة منظمة كان داعياً إلى استقرار فنون القول مع مصطلحاتها وحدودها ، وشواهدها مما ساهم فى بناء دراسات النقد فى الشعر بالشكل الذى ظهر فى كتابى « قواعد الشعر » و « البديع » .

وكان للشاهد الشعرى دوره فى بناء تلك الدراسة . ذلك أن القرآن احتاج للاستشهاد على فنونه إلى الشعر . فجمعت مجموعاته ودواوينه . والتزم الشاهد المسألة البيانية كالتشبيه والاستعارة . والكناية . . فى القرآن منذ الدراسات الأولى

لأسلوب القرآن وصاحبها حتى تمام نضجها . وكان للشاهد فى تلك الدراسات أثره فى رسم الخطوط الأولى فى البديع وعلوم البلاغة . وساهم شاهد القرآن إلى جوار شاهد الشعر فى ذلك . فجاء على رأس الأبواب مصحوباً بأمثلة من الشعر والمثل وكلام العرب على مثال ما كان يجرى فى دراسات القرآن .

ولم يحل « قواعد الشعر » من أثر القرآن على الصورة السابقة . ولم يصل إلينا من دراسة ثعلب لبيان القرآن أو تفسيره شىء يمكن أن نحكم به على فهمه لفنون القول فى القرآن . وما وقع من أمثلة لذلك بين أيدينا قليل لا يعدو آيات متفرقة أوردت للشاهد فى « مجالس ثعلب » يغلب على تفسيرها الطابع النحوى واللغوى .

(ب) دراسة بيان الشعر فى كتاب الكامل لمحمد بن يزيد المبرد :

لم تكن دراسة المبرد للبيان منظمة فى كتاب الكامل ، فهو قريب الشبه بالبيان والتبيين من هذه الناحية . وكان قصده من تأليف الكتاب أن يورد نماذج من الشعر الفصيح والأدب الرفيع ويشرحها بأسلوبه الرصين ، ويقارن بين ما جاء فيها وفى غيرها ، ثم يورد آيات من القرآن يستشهد بها على ما جاء فى كلام العرب من فنون القول . ثم يشرح تلك الآيات ويوضح ما فيها من الغريب ويكشف عن جمالها البيانى .

يقول فى مقدمة الكتاب « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ، ومثل سائر وعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ، والنية فيه أن نفسر ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً ، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنياً » .

ويبدأ بالحديث الشريف « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع »، فيقول : الفزع فى كلام العرب على وجهين أحدهما ما تستعمله العامة تريد به

الذعر ، والآخر الاستنجاد والاستصراخ من ذلك قول سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزعٌ كان الصراخ له قرع الظَّنابيبِ

يقول إذا أتانا مستغيث كانت إغاثته الجد فى نصرته ، يقال قرع لذلك الأمر ظنبوبه إذا جد فيه ولم يفتر ، ويشتق من هذا المعنى أن يقع فزع فى معنى أغاث كما قال الكحلبة اليربوعى . . .

فقلتُ لكأس ألْجِميها فإنما حللتُ الكثيب من زُرُود لأُفْزِعا

يقول لأغيث ، وكأس اسم جارية ، وإنما أمرها بالجام فرسه ليغيث ، والظنبوب مقدم عظم الساق .

وهكذا إذا وجد فى الحديث أو المثال الذى يورده شيئاً غريباً يحتاج إلى إيضاح شرحه وضرب له الأمثلة . ثم إذا احتاج الأمر شرح غريب الأمثلة واستشهد عليها . . .

ومتى تقدمنا فى قراءة الكتاب عثرنا على كثير من افتنات المبرد فى البيان والأسلوب عامة فى القرآن والشعر .

فيتكلم عن التقديم والتأخير ، وأساوب الاستفهام ، ويعرض للتشبيه فيعقد فيه باباً[1] يقول فيه « وهذا باب طريف تصل به هذا الباب الجامع الذى ذكرناه وهو بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين بعدهم » ويذكر أمثلة ثم يقول « والعرب تشبه على أربعة ضروب فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ، ولا يقوم بنفسه وهو أحسن الكلام »[2] ويقول « واعلم أن للتشبيه مواقع فالأشياء تتشابه من وجوه وتتباين من وجوه . فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع . فإذا شبه الوجه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق ولا يراد العظم والاحراق . قال الله عز وجل : (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ)

(١) الكامل ٢ / ٦٥

(٢) الكامل ٢ / ١٠٥ .

والعرب تشبه النساء ببيض النعام ، تريد نقاءه وصفاء لونه . قال الراعى :

كأنَّ بيضَ نعام فى ملاحِفِها إذا اجتلاهُنَّ قيظٌ ليلهُ وَمِدُ »[1]

ويذكر كثيراً من الأمثلة لتشبيهات العرب ، فالمرأة تشبه بالسحابة فى مشيها ، والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر ، والغصن والغزال ، والبقرة الوحشية ، والسحابة البيضاء ، والدرة والبيضة ، وإنما قصد من كل شىء إلى شىء[2] .

ويذكر كثيراً من الأمثلة للتشبيه فى الشعر والقرآن والنثر ، مثل قوله تعالى : (وترى الجبالَ تحسبُها جامِدةً وهى تمُر مرَّ السَّحاب) وقوله : (كأمْثال اللؤلُؤ المَكْنُون) ثم يقول : « والتشبيه جاء كثيراً فى كلام العرب ، والتشبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس » ، وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم وعن أصل أخذوه أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبى أو البقرة الوحشية والأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم ، والشعر بالعناقيد ، والعنق بإبريق الفضة والساق بالجمان ، فهذا كلام جاز على الألسن » . ويقول فى موضع آخر : « والتشبيه كثير وهو باب كأنه لا آخر له »

ومما يستحسنه المبرد فى التشبيه التعدد كقول امرئ القيس :

يقول « فأحسن ذلك ما جاء بإجماع الرواة ما مر لامرئ القيس فى كلام مختصر . أى بيت واحد من تشبيه شىء فى حالتين بشيئين مختلفين . وهو قوله :

كأنّ قلوب الطّيْر ، رطْباً ويابِسا لدَى وكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البَالى »

ومثله أيضاً قوله : ومن أحسن التشبيه وملبحه قول رجل يهجو رجلا برثاثة الحال :

يأتيك فى جُبَّةٍ مخرَّقة أطولُ أعمارِ مثلها يومُ

(١) نقض المصد ١٤٢٢ ط ١٣٤٢ هـ

(٢) الكامل ٢ ١٥ .

وطليســـان كالآل يلبسُه على قميص كأنه غيمُ

ومما ذكره من ألوان التشبيه المختصر . يقول : والعرب تختصر فى التشبيه ، وربما أومأت به إيماء ، قال أحد الرجاز :

بتنـــا بحسانَ ومِعْزَاهُ تَئِطْ. ما زلتُ أسعى بينهم وألْتَبِطْ.

حتى إذا كان الظلامُ يختلِطْ. جاءوا بمذْق هل رأيتَ الذئب قطْ.[1]

وتكلم عن التشبيه فى قوله تعالى: (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) فقال: اعترض معترض من الجهلة الملحدين فى هذه الآية فقال إنما يمثل الغائب بالحاضر ورءوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها ؟ وهؤلاء فى هذا القول كما قال الله تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ولمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيلُه). وهذه الآية قد جاء تفسيرها فى ضربين ، أحدهما أن شجراً يقال له الأستَنُ منكر الصورة يقال ثمره رءوس الشياطين . وهو الذى ذكره النابغة فى قوله :

« تحيدُ من أستَن سود أسافِلُه »

وزعم الأصمعى أن هذا الشجر يسمى الصوم . والقول الآخر وهو الذى يسبق إلى القلب أن الله جل ذكره شنع صورة الشياطين فى قلوب العباد . وكان ذلك أبلغ من المعاينة . ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس »[2] .

ويستطرد فى ذكر شواهد على استعمال العرب لكلمة شيطان فى الشعر متتبعاً معانيها ، وينتهى إلى تقرير المعنى الذى ارتضاه وهو أن الشيطان الذى طبع الله صورته الشنيعة فى قلوب العباد فأصبحت تعبها وعى العين وتحسها كأنما هى كائنة .

(١) الكامل ٢ / ١١٤ .
(٢) ٢ / ٩١

وبهذا يخالف المبرد جماعة من اللغويين ، ويأخذ برأى الجاحظ ، ويهتدى فى فهمه بالبيت الذى سبق لأبى عبيدة أن أورده شاهداً على هذا التشبيه فى الآية ، وهو قول امرئ القيس :

أيوعدنى والمشرَفى مضاجعى ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغوالِ

ويضع قاعدة يزن بها ما جاء من التشبيه البعيد الذى لايقوم بنفسه فى قول الشاعر :

بل لو رأتنى أختُ جيراننا إذْ أنا فى الدار كأنى حمار

يقول فإذا أراد الصحة فهذا بعيد لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره. وقال الله عز وجل ، وهذا البيان الواضح - (كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) والسفر الكتاب ، وقال: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَار) فإنهم قد تعاموا عنها وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها حتى صاروا كالحمار الذى يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها [1] .

ويتكلم عن المجاز فى القول فيقول : (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) لم يكن كلاماً وإنما فعل عز وجل ما أراد فوجد . قال الراجز :

قد خنق الحوض وقال قطنى سلاً رويداً قد ملأت بطنى

وسؤال المؤودة فى قوله تعالى: (وإذا الموءودةُ سُئِلَتْ) أو سألت ، ومجاز الاستفهام فى قوله تعالى: (أأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونى وأُمِّىَ إلهيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ) يرى أن الاستفهام خرج هنا عن موضعه إلى التبكيت [2] .

وعن الإيجاز والإطناب فيقول « من كلام العرب الاختصار المفهم والإطناب

(١) الكامل ٢ ١٠٧ .
(٢) الكامل ٢ ٢٩٠ .

المفخم ، وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيخفى عنه ذوى الألباب عن كشفه كما قيل لحة دالة » .

وعن الكناية فيقول « ويكون من الكناية — وذلك أحسنها — الرغبة عن النظر الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره . قال الله — وله المثل الأعلى — (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسَائِكُمْ) .. وقال الله عز وجل فى المسيح ابن مريم وأمه صلى الله عليهما : (كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعامَ) وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة »[1].

والالتفات أو ترك مخاطبة الغائب إلى الشاهد أو العكس ، قال الله عز وجل : (حَتَّى إِذَا كُنْتُم فِى الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) كانت المخاطبة للأُمة ثم انصرفت إلى النبى صلى الله عليه وسلم أخباراً عنهم قال عنترة :

شطت مزار العاشقين فأصبحت عسراً على طلابك ابنة محرم

فكان يتحدث عنها ثم يخاطبها[2].

ويتعرض للغة القرآن عامة ويزن عليها ما جاء من اللغات فى النصوص الأدبية المختلفة التى أوردها ثم يرى أن القرآن لا يلجأ إلى الضرورة وأنه « إنما يحمل على أشرف المذاهب[3] فلغته أصح اللغات وأفصحها » والقرآن محيط بكل اللغات الفصيحة[4] .

وهكذا يتضح من دراسة المبرد فى الكامل ومن قبله فى « اختلاف اللفظ » أنه كان يحكم ذوقه الأدبى فى النص القرآنى أو النص الأدبى أيًّا كان ، فلم تتحكم فيه النزعات اللغوية الظاهرية ، ولم يقف عند حدود الغريب بل حاول أن

(١) نفس المصدر ٤١ .
(٢) الكامل ٦٨ .
(٣) نفس المصدر ٦٨ .
(٤) الكامل ٩٣ .

يفهم أسرار التعبير وألقى ببصره وراء الألفاظ ، فتنبه ببصيرته إلى بعض ما فى الأسلوب من الجمال .

٣ ــ دراسة ابن المعتز لبيان الشعر فى كتاب البديع :

كتاب البديع من الكتب التى اهتم بها كثير من الباحثين فى الأدب العربى ونقده فى العصر الحديث ، وعلى رأس هؤلاء المستشرق كراتشوفسكى فى مقدمته للكتاب ، وغيره[١] ممن اهتموا بتاريخ النقد ، ولا نريد هنا أن نخوض فى ما خاضوا فيه ونعيد القول فى الكتاب والبديع ونشأته .

ولكن مما تجدر الإشارة إليه أن كلمة بديع لم تكن جديدة فى كتاب ابن المعتز ، فقد سبق للجاحظ أن أطلقها على تلك الألوان البيانية فى الشعر بقوله « والراعى كثير البديع فى شعره وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع »[٢] . ويقول فى موضع آخر « والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة . وأربت على كل لسان[٣] » .

ونلاحظ أن كثيراً مما أورده ابن المعتز فى البديع سبقه إليه من كتب فى دراسات القرآن وبخاصة الجاحظ وابن قتيبة والمبرد ، ومن كتب فى الدراسات البيانية فى الشعر كالجاحظ وثعلب ولعله تأثر بأستاذه ثعلب أكثر من غيره .

وجمع ابن المعتز شواهده من القرآن متأثراً بمن سبقه إلى تقريرها مع الفنون البيانية .

وقد عرف « كتاب البديع » بين القدماء والمحدثين ــ لأمر ما ــ بأنه أول محاولة لوضع فنون القول ــ البديع ــ وجمعها فى كتاب ، تحت أبواب .

(١) الدكتور مندور فى النقد المنهجى ، والدكتور إبراهيم سلامة فى بلاغة أرسطو ...
(٢) البيان والتبيين ٣/٢١٢ ط ١٣٣٢ هـ .
(٣) البيان ٣/٢١٢ ط ١٣٣٢ هـ .

ولعل هذا الاعتقاد راجع إلى ابن المعتز نفسه فى مقدمة كتابه[١] ، وتبعه فى هذا ابن رشيق[٢] ثم جاء المتأخرون ليصدقوا على ما قال الأولون[٣] ، ولكن كراتشوفسكى لا ينكر تأثر ابن المعتز بسابقيه[٤] .

ومهما يكن من شىء فإن جمع الفنون وترتيبها على هذا النحو لم يكن ابن المعتز السابق اليه ، وقد شك فى ذلك صاحب النثر الفنى[٥] . وهذا حق فإن علماء العرب لم يسكتوا عن تتبع الفنون البيانية فى القرآن والشعر على ما سبق القول فيه ، ولم يكن لابن المعتز من فضل غير تخليص الأسماء والتعريفات تخليصاً جنى على تلك الفنون ودمغها بالشكلية[٦] . ووجه هم علماء البلاغة إلى ظاهر الدراسة الأدبية ، فتركوا اللب وأعجبوا بالجزئيات ، وأغرموا بالتزيد فى الأسماء

وبعد فإلى أى شىء سبق ابن المعتز فى البديع ؟ أإلى الاستعارة ، وهى من أسبق الفنون ظهوراً فى دراسات القرآن ، فضلا عن استقلالها بأبواب فى مثل كتاب « مشكل القرآن » ، ثم ماذا أحدث فى الاستعارة ، ألأنه وضعها فى رأس أبواب البديع ؟ أم لأنه عرفها ووضع لها الحدود ؟ ثم ماذا أضاف إلى تعريف الجاحظ ؟ « إنها تسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه » ، ثم ماذا جدد فى تعريف ابن قتيبة « العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها من الآخر ، أو مجاوراً له أو مشاكلا » وهو تعريف أوفى من حد ابن المعتز وأقرب إلى معنى الاستعارة ودورها فى التعبير . ثم أين دراسة ابن قتيبة الخصبة لضروب الاستعارة ، وما جاء منها فى القرآن والشعر وكلام العرب إلى هذه الدراسة المقتضبة ؟

(١) البديع نشره كراتشوفسكى ص ٢ ، ٣ .
( ) العمدة ١/١٧٧ ، ١٨٨ .
(٣) مندور فى النقد المنهجى ٤٤ ، وإبراهيم سلامة فى بلاغة أرسطو ص ١٠ .
(٤) كراتشوفسكى المقدمة ص ١٠ .
(٥) زكى مبارك فى النثر الفنى ١/٥٦ .
(٦) مندور النقد المنهجى ٣٧

والتجنيس، لقد عرف قبل ابن المعتز ، فقد ألف الأصمعى فى الأجناس، وكانت فكرة تشابه الألفاظ فى الشكل واختلافها فى المعنى تراود ذهنه ، وتبعه القاسم بن سلام ، وكان الجناس بعينه ضمن قضية اللفظ والمعنى التى أثارها بيان القرآن ، واختلف حولها اللغويون وألفوا كثيراً من الكتب فى هذا الميدان[١] .

والمطابقة ورد الأعجاز إلى الصدور كل هذا سبق الكلام عليه ، بل يعترف ابن المعتز نفسه بأنه أخذ المذهب الكلامى عن الجاحظ[٢] .

إذاً فإن أثر الدراسات القرآنية فى كتاب البديع وغيره من الكتب التى تعرضنا لها غير خاف ، وإن كان غير مباشر ، وابن المعتز يهتم بوجود فنون البديع أو عدم وجودها فى القرآن ، فإنه لا شك كان مستحضراً لبعض ما نجم منها فى الدراسات القرآنية السابقة عند ما ألف كتابه ، فهو عند ما أراد الكلام عن البديع فى مقدمته أشار إلى أنه موجود فى القرآن[٣] وحين تكلم عن المذهب الكلامى قال « وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن منه شيئاً وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[٤] ، ثم هو لا يفتأ يجعل شاهد القرآن فى مقدمة شواهده .

---

(١) منها كتب الأضداد والاختلاف فى اللفظ التى سبق الكلام فيها .
(٢) البديع ص ٥٣ .
(٣) نفس المصدر المقدمة .
(٤) البديع ص ٥٣ .